حكايات خلف الأسلاك الشائكة

قصة بقلم محمد رياض عصمت

امسك النبي ابراهيم سكينه في عزم وايمان ، واعماق عيونه تقطر بالمطر . من أجل ايمانه سيضحي بابنه اسماعيل .. يا ليته يضحي بنفسه بدلا منه .. ان السماء تطلب الكثير . من اجل ايمانه والسماء يبذل كل شيء ... كل شيء على الاطلاق . اسماعيل ممدد كالشاة في استسلام مريع . ليته يقاوم .. ليته يتحرك .. ليته يصرخ ، لكنه لا يفعل شيئا ابدا .. لكنه ينظر في دعة الى حد السكين تبرق بالموت قريبا من عنقه . السماء تحركت ، وانشق بطن السحاب وأتت شاة سمينة بدلا من الضحية ... فلتكن السكين اذن سلاحا لا يشق اعناق الضحايا من اجل السماء .. بل اجساد الغاصبين .. الاشباح المعتمة التي تدنس شرف الارض بالخطيئة . نام اسماعيل .. وقام النبي ابراهيم يعمل ... يناضل ...

***

الليل قاتم اسود صامت كأعماق قبر ، والاشواك البرية تنتصب على الرمال كتلا متفرقة كأشباح تنتظر فريسة . لم لا ؟ لقد امتلأ العالم اشباحا .. اتباع شيطان .. ومصاصي دماء . الصمت يعزف انغامه في قربة مقطوعة .. صمت لا تسمع معه شيئا الا تلك الخطوات الرتيبة الرهيبة ، تسير منتظمة كعقارب الساعة . تحرك كالارنب البري لينبطح وراء كتلة شائكة اخرى . حملقت الحدقتان في الوجه النحيل كعيني قط فزع ، وأصابعه تتقلص على تراب الارض .. نشده اليها في عصبية . لم يتحرك شيء ، لا حشرة ولا نبتة ، ولا حجر . الساقية لا بد قريبة ، انه يعرفها تماما ، يشم رائحتها على بعد ميل . كيف لا يعرفها وهي الخصب والخير والموسم الطيب ! رفع رأسه في حذر ولمح السياج المقيت .. كتلا متشابكة بشدة من الاسلاك المعدنية الشائكة ...

***

أمه العجوز قابعة في سكون وقد تراخت أصابعها عن العبث بمسبحتها فسقطت في حجرها . كانت يداها المغضنتان تشدان على بطنها في حذر . اخته قد تمددت في جانب الغرفة كخشبة ، تدعي النوم ، وذراعها تحيط بالطفل النائم حانية . وهو يعلم تماما انها تصغي الى القصف البعيد في فزع وبؤبؤا عينيها ملتصقان بطين الجدار . الرجال يعملون المستحيل ، الابطال يعملون ... وألف شمس تسطع وتموت . تكلم اخوه الصغير : « جوعان يا آمي » . نظرت اليه وقد أفزعها صوته أكثر من قصف مدفعية المورتر . « اسكت الان ونم . » — « اريد أن آكل . جوعان . » وحركت آخته رجلها في قلق — عادت أمه تقول : « لا يوجد عندنا أكل الان . عندما يشرق الصباح سيذهب اسماعيل الى الحقلة ويأتينا بشيء . نم الان . » صمت الغلام كأنه فهم وعيناه تتطلعان الى السقف . كأنما جالت في رأسه فكرة نظر الى اسماعيل يسأل : « لماذا يهجمون علينا ؟ » حلقه يغص مختنقا . ماذا يجيبه ؟ عاد الغلام يسأل : « لماذا يسرقون ارضنا ؟ » عيناه تدمعان بما يكبته منذ زمن . انه رجل والرجل لا يبكي . لكن بماذا يجيب ؟ تحركت اخته مرة اخرى . أتى الرجال بزوجها عندما كان بطنها منتفخا يحمل طفلها الذي تحتضنه الان .. أتوا به وعلى جبينه الاسمر الحبيب فوهة بركان تتدفق منها الحمم . صوتت كديك ذبيح ، وغشي الظلام عينيها . الذكرى ما تزال في صدغيه تقرعهما كالطبول . — « لماذا لا يعاقبهم الله يا اسماعيل ؟ » نعم . لماذا لا يعاقبهم الله ؟ سؤال وجيه .. الغصة تخنقه ، والدمعة تترجرج على حوافي جفونه . وانقذته امه وشفتاها الباهتتان تهمسان : « كفى يا سعيد . اللي بنا يكفينا . نم بدون كلام ، فالطفل سيستيقظ » . وحل الصمت القاتل مرة اخرى .

***

رائحة التراب تملأ خياشيمه . رائحة يعرفها جيدا عندما كان محراثه يشق تلل التراب العميقة فينثرها كالنجوم . رائحة يعرفها جيدا عندما كانت الخضرة تنبثق كالشموس من الارض . رائحة يعرفها جيدا عندما كانت المياه تتدفق .. تغزو كل شبر فتحيل بذوره الى خير وعطاء وخصب . لا بد ان يصل فالجوع يمزق احشاءه هو أيضا . اصاب الخدر ساقه فتحرك الى مكان اقرب . واهتزت كتلة شوك قليلا . احس صوتها كالهدير . وجمدت الخطوات الرهيبة الرتيبة . تردد الصوت اجوف يتحدث بلغة غريبة . لم يفهم ما صاح به الحارس . ربما كان يسأل من هناك . همد في مكانه بغير حراك . اقتربت الخطوات منه تلطم الشوك ، بينما الصوت يعيد ما قاله بنفس اللهجة . نظر من بين فروع النبات فلمح ماسورة البندقية على ضوء القمر . كانت فوهتها قريبة من جمجمته ، عميقة ككهف ...

***

كان حشد من الرجال أمام البيت . وجوههم صامتة .. عيونهم صامتة .. ايديهم صامتة .. كأنهم قدوا من حجر . شق طريقه وعيونه تسأل . امسكه بعضهم وتحسس بعضهم خصلات شعره برفق ، لكنه لم يفهم . اندفع يصفع الباب . وانفتح الباب ، وتدفقت امطار من دموع . نسوة في سواد .. كالساحرات ، وامه في زاوية ، صفراء ، سوداء ، بدون لون . وهمس صوت فارغ : « مات أبوك . » مات ! أبوه مات !! كيف يموت ؟ كيف يقضي انسان ؟ عيناه امامه وصورته العتيقة .. وشارباه .. وحنانه .. مات ! في لحظة مات ! كيف يموت ؟ واشياؤه الصغرى تحيا .. على الرف .. في الركن الصغير .. في الحقلة .. في القهوة .. وفي الطريق .. أبلحظة يختفي انسان من الوجود ؟ أبلحظة يلتهم الانسان لقمة في فم العدم ؟ لم يفهم ، ولن يفهم اسماعيل. وهل يفهم الموت !؟ — « مات شهيدا . » قالوا : « روحه ستدخل الجنة » . قالوا : لكنه لا يشعر الا بالفزع .. بالرعب يأكله .. يمضغ اعصابه وجثته . مات ابوه وفقدت العائلة سندها . قبر أبيه فارغ .. فارغ كالكون ، كالعدم ، يحمل شاهدة ولا يحتوي على جسد . لم يبق لابيه جسد ، قتلته قنبلة من قنابل الحضارة النذلة يوم وقف يجابه غدرهم ببندقية عجوز .. يوم وقف يحمي شرف التراب من احذية الاوغاد . لم يبق من اشلاء والده شيء .. اختفى فجأة كأنه لم يكن ابدا . وجود انسان رهن بفوهة بندقية المفزع يغمره دائما . وجود انسان رهن بفوهة بندقية .. وحقه والشرف .. والحياة كلها رهن بفوهة بندقية ... احيانا ...

***

قفزت سحلية كبيرة من بين الشوك البري ، لمحها الحارس الصهيوني فقهقه . تراجعت خطواته وأبتعدت ماسورة الموت عن ابراهيم. هناك ، على بعد امتار فقط تبدأ حدود ارضه . لقد مرت عليه فيها مواسم ومواسم ، وعلى ابيه وجدوده مرت مواسم . الارض هي حياته .. هي مستقبله .. هي عالمه .. هي وجوده . انها البركة والعيش والسلام ، يشعر بالحب والحنين لكل ذرة فيها تفوح بالعطاء لقد شوهوا نضارتها بأسلاك بشعة ، ونصبوا عليها حراسا كالفزاعات . لقد خنقوا

اصحابها بعيدا عن ترابها الحبيب .. عن الزرع الاخضر والنماء . انهم يغيرون على القرى كالذباب ، يحرمون البشر من الغذاء ، ونيرانهم تحصد اجساد الانسانية المعذبة . مياه الساقية تذهب هدرا ، بينما التربة تتمزق من الجفاف ، تتجعد كجبين عجوز . غلب وطنه في الجولة ، وتقدمت اقدام غريبة تطحن شرف الارض . انتصب الاعداء يسدون منافذ عيشهم بالموت والدمار ، والاطفال والنساء بل والرجال امثاله يتضورون من الجوع ، ومن كفتي الميزان يطل وجه عزرائيل .. كل درب يحوي المنجل الرهيب في آخره . الفزع يغمر اسماعيل ، والاختيار صعب . انه جبان .. جبان .. جبان ، والا يجب ان يتمرد ، ان يضع روحه على كف عفريت ويصرخ : حرية . لكنه يعجز . ارضه قريبة ، وهو كرضيع يحاول الالتصاق بأمه يزحف اليها . شدوه عنها وحبل الرحم لم يفصم بعد . أصبح عليه أن يتسلل تحت جنح العتمة كالخاطىء .. كالموصوم ليعيش .. ليمتص الحليب من ثديي امه الارض . انه لا يحيا .. بل يسرق الحياة ، يستجدي الحياة . أمه العجوز كالارض ، تنتظر في صمت ، وتحتمل صور العيش . أصابعها العجاف تشد على بطنها الجاف، تخفف عنه آلام الجوع والجفاف .

***

« توقف الضرب » . قالت الام وهي تنظر الى اسماعيل . كثير من الدم ، لا شك ، الفدائيون يبصقون بصماتهم الخشنة على جبين العدو . مات كثير ، لا شك ، لكن بلون الدم تكتب ارادة الحياة . انه يعجز .. يعجز . رفعت أخته رأسها لاول مرة ، وجدائل شعرها تنطلق شعثة كأعشاب البحر . انصتوا جميعا ، الصمت سائد تماما . جامعو الجثث يتحركون بلا ريب في نشاط ، والحفر السوداء يسيل لعابها لمرأى الاجساد العديدة . صاح الغلام يئن : « جوعان » . ـ « هس ..» أسكتوه . وبكى الطفل كأن صمت المعركة ايقظه . قالت اخته : « يريد ان يأكل » . قامت أمه الى الرف تفتش . لا حليب . لا دقيق . فقط علب واوان فارغة . جمدت كتمثال ، وتبادلت نظرة مع ابنتها ثم مع اسماعيل . قال اخوه : « جوعان يا آمي » . وعاد الطفل يبكي . واستمر الطفل يبكي طويلا .. طويلا ، فقد عزفت الرشاشات العدوة انغامها انتقاما ، ونصبت في دروب القرية حواجز واسلاك شائكة كثيرة .

***

السحاب ينساب في السماء المعتمة كأنه دخان ، والقمر يرسل نوره في هدوء ودعة. تذكر اسماعيل ايام السقاية والحصاد وهو غلام، عندما كان ينام في الحقلة وعيونه تعانق القمر في سلام . النسيم رطب لذيذ ، وحفيف الغصون كالمراوح . البرتقال كان له أريج مختلف ، لا يشوهه الحديد والبارود ورائحة الدم العفنة . تذكر عندما كان يحمل لابيه الطعام ، فيجلسان في ظل عريشة ، ياكل ويستمع الى صوته الخشن الحبيب . ـ « احب الارض يا اسماعيل . الارض ثروتنا ، الارض أمنا يا اسماعيل . انها تحبنا ايضا بقدر ما نحبها ، وتحافظ علينا بقدر ما نحافظ عليها » . الارض .. الارض . المحبة والعطاء والخير .. وفقط اليوم : القبور الفارغة .

***

« سأذهب » . قال اسماعيل وقام . نهضت أمه بصعوبة . لم تجرؤ ان تقول له شيئا ، وصاح آخوه : « هل ستأتينا بطعام من الحقلة؟» نظر اليه وقال : « أن شاء الله » . وحاولت امه تلطيف الجو وهي تلبسه سترته فقالت : « حتى الطفل يبدو انه فهم . لقد سكت » . وابتسمت مغتصبة بهجة مرة . كانت أخته تتحسس طفلها الصامت : « اطمئن يا حبيبي . خالو اسماعيل سيأتينا بشيء نأكله » . ظل الطفل ساكتا لا يريم ، فهزته في قلق : « ولدي ! » كان الصمت مريعا . ـ « ولدي ! » لم يتحرك الطفل . زعقت كالمجنونة « أمي . مات ولدي..» وانطلقت الامواج تلطم جدران عينيها ...

***

لم يبق الكثير فهي امتار فقط يقفز بعدها خلف الاسلاك ليجمع بعض الخضار والفاكهة ويجلب شيئا من حصاد القمح في جعبته . مد يده يتلمس السكين المندسة في حزامه . امسك بها قرب وجهه . كانت العجوز صامتة وعلى جفنيها تنزلق دموع حارة . مدت اصابعها العتيقة تناوله السكين ، وعيناها جليد بارد . « لا . لا أستطيع ان اقتل .. » قال اسماعيل في جزع وصوته يرتجف . هزت العجوز يدها باصرار صامتة وهي تدفع السكين الى حزامه . كانت أخته تعول ويداها تعتصران جسد طفلها الميت . لقد تضور جوعا وسيلحقون به ان لم يفعل شيئا . انه لا يستطيع ان يطلب العون ، فأمام منزلهم مباشرة رشاش يسد الطريق ويحول أي مار الى مصفاة . الكوة الخلفية هي دربه الوحيد . دس السكين في حزامه وتسلل من بيته كأنه لص .

***

الحارس يسير امامه تماما جيئة وذهابا . لا بد ان يقتله . تذكر قبر أبيه الفارغ ، تذكر صهره الصريع ، والطفل الذي تضور جوعا . لا بد أن يقتله ، فأمه واخته والغلام أخوه ينتظرون الحياة على يديه ، والحياة لن تاتي حتى اليه هو أن لم يقتله . أصابعه تشد على مقبض السكين وحدها آمام عينيه كالقدر . طعنة صغيرة وينتهي الامر . لكن.. يا الهي .. سيتفجر الدم وتنطلق آهة مكتومة .. انه لا يستطيع .. المعدن يغوص في اللحم الطري .. ينفذ فيه ، ويزول من الوجود انسان. انه لا يستطيع فقد تعودت شرايينه حب البشر وادمنت على السلام .. كيف يستطيع انسان قتل انسان . انه كسيح .. وجائع .. انه لا يستطيع شيئا .. آي شيء على الاطلاق . لكن .. ماذا سيقول سعيد الصغير ؟ هل سيفهم ؟ هل سيفهم ورأسه الصغير يتدلى مصفرا يلعق التراب من الضوار ؟ هل سيدرك وامه تقضي وآخته تنازع وهو يتلوى ؟ لا بد من القتل .. لا بد من القتل . رائحة التراب تملأ خياشيمه . وقف الحارس امامه ، ظهره اليه ، بندقيته متكاسلة . تحفز كالنمر وحد السكين الكبيرة يطل ، يحمل الموت بين جنباته . وحرك الحارس رأسه . وفجأة أصطدمت عينا اسماعيل بعيونه ، ولمع فيهما نور القمر.. كان شابا .. انسانا في عمر الورود ، وجهه نضر كزهرة .. وماتت السكين في يده على التراب . او لم يدر وجهه ! لو لم ترتسم في عينيه تلك النظرة القلقة ! لن يقتله انه لا يستطيع ، ففي داخله شيء خفي يقيده .. يشمئز من السكين ولطخ الدم اللزجة . ابتعد الحارس لا يدري . لم يبق سوى حل واحد . وبسرعة خارقة انتصب واقفا غير آبه بالاشواك التي مزقت ثيابه وجلده . انطلق يقطع الامتار القليلة كالنمر . الساقية امامه ، وأرضه ، والاسلاك الشائكة . انه سيقفز ، سيجتازها ، سيأتي آهله بالحياة . وصاح صوت بلغة غريبة وراءه . كان السياج الشائك امامه . وانطلق هدير . تعثر ، وانفجر ألف بركان في جبينه . احس برؤوس المعدن المدببة تغوص في لحمه كالابر . يا الهي

صدر حديثا

لن يضيع الغد

ديوان جديد
من وحي النكسة
للشاعر
حسن عبد الله القرشي

٢٥٠ ق.ل
دار الاداب

المكافأة (١)

للشاعر الزنجي راي ريموند

ترجمة : عبد القادر الجنابي

(ساعة ذهبية الى رجل المباحث الفيدرالي الاميركي الذي لاحقني لمدة ٢٥ سنة)

حسنا أيها الجاسوس القديم
يا من تبدو كما لو اني قدتك
خلال طرق مغلقه .
اصطحبتك في رحلات عديده
الى مجاهل المكسيك .
وقد راقبتني طيلة حياتك
وأنا أصطاد السمك في مرتفعات سييرا
وأعزف الجاز في نادي الفيلهارمونيك .
ـ انني أعرفك أيها الجاسوس العجوز
فقد ألبست زوجتك أغلى الملابس
وجعلت ولديك يدخلان الجامعة .
وماذا كانت فائدة ذلك ؟..
الشمس تستمر بالشروق ، كل صباح .

***

هل رأيتني أبتاع رئيسا ؟..
أو أغلق مدرسة ؟..
أم انني زودت تروجيلو بالمال
لقتل الثوار ؟..
أرأيتني أجبي أثمان الطائرات ؟..
ـ اشتريت بعد بضع ساعات ، كأسا من الويسكي
لكن صاحب البار استلم النقود ـ
انني لم أقتل كوريا
ولم أشنق صبيا زنجيا في الرابعة عشرة من عمره (٢)
كما اني لم أقذف غواتيمالا بالقنابل
أو أعددت البنادق لقتل الجزائريين .

***

ـ انني أعترف ...
بأني اصطحبت طفلة زنجية
الى غرفة الاستراحة الخاصة بالبيض في تكساس..
لكنها كانت ابنتي
. . . . . .
ترى من كان عليه أن يسترق النظر ؟..

(١) هذه القصيده من كتاب « الشعر الزنجي الاميركي المعاصر » الذي سيصدر قريبا للمترجم .

(٢) الصبي هو تل مت الذي شنق سنة ١٩٥٥ بتهمة هي انه أصفر لفتاة بيضاء !!!

.. الارض .. الساقية . الدماء تنقط من جبينه . دون هدير اخر وصيحة انتصار . رأسه مدلى الى الخلف وفي ظهره تنغرس اطراف الاسلاك كالسهام ، تمزق لحمه النضر . حمم البركان اللاهبة تتدفق من جبينه ، تحرق كل شيء ، تبقي على لا شيء . انه يلمحها تنقط نقطة.. نقطة على تربة الارض . ربما ثبتت مكانها نبتة .. ربما شجرة ضخمة .. ربما انسابت في اعماق الارض جذور لا تقلع وارتفعت منها راية .. ربما حل موسم خصب ذات يوم . صاحت أصوات بلغة غريبة من حوله. ودوت قهقهة حيوانية غريبة . غريب ! هل هم بشر ؟ بدت له اشكال اشباح لا انسانية . يا الهي .. الارض اضحت حمراء .. لم يعد يرى شيئا الا حمم اللهب المتدفقة . قدم تركله .. وضربة من كعب بندقية . الدماء تنبثق من جروحه على الاسلاك الشائكة . الظلام يغشى اعماقه . ماذا سيقول سعيد ؟ وأمه ؟ واخته الثكلى ؟ هل سيعيشون ؟ هل سيلحقون به ؟ الدم يغطي كل عينيه يحول المنظر الى سواد . انه يغوص .. يغوص في الدم .. يتلاشى .. انتهى كل شيء ...

***

في مكان اخر من الحدود تحرك جسم في الظلام وكمن بين الاشواك . الليل قاتم أسود صامت كأعماق قبر ، والاشواك البرية تنتصب على الرمال كتلا متفرقة كأشباح تنتظر فريسة . كان اسمه ابراهيم . زنده أسمر ، جبهته اعصار ، عيونه من نار ، وعلى ملامحه علامات بني . رائحة الارض تملأ خياشيمه . الساقية لا بد قريبة ، انه يعرفها تماما ، يشم رائحتها على بعد ميل . كيف لا يعرفها وهي الخصب والخير والموسم الطيب ! رفع ابراهيم رأسه في حذر ولمح السياج المقيت ، كتلا متشابكة بشدة من الاسلاك المعدنية الشائكة .. تذكر قبر أبيه .. وأمه التي احترقت مع بيتهم .. تذكر اخوته في النضال . أمسك السكين بشدة ووضع رأسها المدبب على منتصف عنقه . أما هو واما العدو . اصابعه تشد على المقبض ، وحدها امام عينيه كالقدر . واحد منهما سيقتل وستبقى الارض . ان اللاانسانية تصفع انسانية الانسان . لا بد له أن يقتل ليعيش .. لا بد له ان يقتل .. وسيقتل .. سيقتل ....

انطلق والسكين صاروخ يدفعه الايمان ، وغاص المعدن في اللحم ، والآهة الحيوانية انكتمت في حلق الحارس الغريب . جثا تحت الاسلاك يمد لغما في براعة وحذر وثقة . سوف تأتي الدورية قريبا . كان النور ينبلج من السماء ، ومسيح جديد يظهر . انتهى . انطلق بعيدا الى التلال العالية . كان اسمه ابراهيم عيونه نار ، زنوده نار ، عزمه كالتيار . وسطعت شمس ودوت رعود .. واختفى عشرة قتلة انذال في الدم تمضغهم شظايا اللغم . كانت التلال تردد صدى قويا كأجراس الكنائس .. كآذان الصلاة .. كان الصوت يرتج بين الجبال كأنه ينبثق من بطن العالم كله يصرخ : .. حرية .. حرية .. حرية ...

دمشق **محمد رياض عصمت**